قصة هذه الفصول

... كنت مولعا بشوقى منذ الطفولة، حفظت الجزء الثاني من ديوانه، لأنه هو الذي وقع في يدي من مكتبة جدي العالم الأزهري، خلال حفظى للقرآن الكريم، دون أن يختلط على الأمر - ولم أزل في الثامنة من عمري - فاعتبرته معجز الشعراء، وأخذت أقيس عليه بعد ذلك أقوال الشعراء الآخرين، وحين بدأت أنظم بعض الأبيات، شأن كل الصبية في جيلى من الحفظة لتراث الأدب ، قلت لنفسى: هل يمكن أن أتفوق على شوقى؟ ولما كانت الإجابة القاطعة بالنفى أصدرت أول حكم نقدي في حياتي بالفطام عن قول الشعر هيبة منه واعترافا بعظمة الأمير، ولم يتحول هذا الشعور نقمة أو ثورة عليه بعد ذلك، بل ما زلت أحمد له أن عصمنى من اقتراف هذا الذنب الأدبي الذي يعمى عنه كثير من النقاد؛ فيكتبون شعرا دون مستواهم الفكري والإبداعي.

ولقد لعبت أم كلثوم بعد ذلك دور المرضعة في تغذية خلايا عقلنا ووجداننا بقصائد شوقى عن طريق السماع الذي يضاعف أثر القراءة البصرية ، ولا بد أن ألحان السنباطى قد أكملت إيقاعات شوقى وأغلقت دائرة سحره، وما دمت في مجال الاعتراف الشجى بهذا التأثير العارم لشعر شوقى على تكويني المزاجي فقد كنت لا أدرك سر شغفي الشديد برائعته:

سلوا قلبي غداة سلا وتابا
لعل على الجمال له عتابا
ويسأل في الحوادث ذو صواب
فهل ترك الجمال له صوابا

حتى تبينت بعد ذلك أن عشق الجمال الذي فصله الخيام هو الجرثومة التى زرعها شوقى ورواها زكى مبارك وألهبتها دراسات الأدب والفن في صميم روحى التائقة حتى اليوم، وكم تألمت من نقد العقاد وتجاهل أدونيس لأهمية شوقى وإنكارهما التام لقيمته ، واعتبرت ذلك غيرة مبدعين لو امتلئوا بالإعجاب مثلي لكفوا عن التحدي والإنجاز.

أشبع مؤرخ الأدب العربي العظيم شوقى ضيف، الذي كان سميه وراهبه، حياة شوقي بحثا ودراسة عندما جعله "شاعر

العصر الحديث"، وتلاه تلميذه الجليل أحمد الحوفي بكتابه البليغ عن "وطنية شوقى" وجاء الدكتور صبري السربوني بالخفى من تراث شوقى عبر حفريات مضنية كشفت عن "الشوقيات المجهولة"، وتتابعت البحوث والدراسات المضنية والكاشفة بالمنظور التاريخى والتوثيقى عن حياته وشعره، لكن ظلت هناك بؤرة مكثفة لم يقترب منها أحد، وهى التي أغرتنى بكتابة هذه الفصول في مراحل متتالية من "ارتحالاتي" النقدية، تتمثل على وجه التحديد في سؤال مركزي : ما هو سر شعرية شوقى التى صنعت عصرا أدبيا كاملا، وغذت أذواق أجيال متتابعة، وأجبرت أدباء العروبة على الإغضاء عن تنافسهم الشرس وتنصيبه أميرا للشعراء؟

ولا أزعم أن محاولاتي للإجابة عن هذا السؤال في تلك الفصول شافية، لكنها بمثابة مقاربات وجيزة لملامح محددة من هذه الشعرية الفائقة بمنطق عصرها، والتي افتتحت ديوان الحداثة العربية بعدد من الإنجازات ، أهمها :

- وضع الشعر العربي في مركز الحياة العامة، بامتلاك خطاب النهضة، وبلورة منظومة القيم المعاصرة والتطور بها إلى درجة عالية من النضج والعصرية.

- تبنى الحيوية الدافقة الجديدة في لغة الشعر، والإسهام في صناعة أدوات الاتصال الجمالي بالجماهير القارئة، واعتماد الغناء سبيلا لذلك.
- فتح باب المسرح الشعري على مصراعيه، وتشقيق الشعرة الدرامية في صلبه، وإكمال هذا النقص الفادح في الشعرية العربية، وحفز الأجيال التالية على تنميته.
- إنشاء أدب الأطفال في الثقافة العربية، والإفادة من تجارب الآداب العالمية في تربية النشء وتغذية وجدانهم وتعويدهم القراءة والتواصل الإبداعي.

وقد كانت أولى مقارباتي النقدية لشعر شوقى محفوفة بالمخاطر، فقد كنت مع كوكبة من رفاقى في الوطن العربي نحاول إحداث نقلة نوعية في المناهج النقدية التاريخية والاجتماعية والنفسية السائدة، فأردت أن أقدم برهانا عمليا على كفاءة المنهج البنيوي الذي أدعو إليه في الكشف عن القيم الشعرية الحقيقية وفض أسرار الإبداع وقراءة تقنياته الفنية، فاخترت نصا شعريا جميلا - لعله أشهر غزليات شوقى - كنت مفتونا برشاقته، وأجريت عليه هذه التجربة المثيرة، القراءة بمناهج متعددة، مع تبنى كل منهج واعتصار قصارى ما يمكن أن يبلغه في إضاءة النصوص، لكنني

للأسف قدمت لهذه التجربة بمقدمة نظرية ثقيلة الوطء على القارئ عن "إشكالية المنهج في النقد" وكانت كافية لأن تصرف القارئ عن متابعة التجربة التطبيقية الشيقة، وتأتي مناسبة هذه الفصول كى أنتقم من تلك المقدمة النظرية وأطرحها جانبا لأتيح الفرصة للقراء كى يختبروا لذة التأمل في حركة المناهج وهى تكشف النقاب عن جمال الشعر الخارجي حينا، والباطني الحميم حينا آخر.

وحدث بعد ذلك أن دعيت لإلقاء محاضرة عن "خطاب النهضة العربية" فوجدت شعر شوقى أفضل مختبر لتشكيل هذا الخطاب وتحديد عناصره، وحينئذ أدركت كيف أسهم في صناعة القيم العصرية في الفكر والثقافة.

وعندما قرأت تجربة العالم الصديق التونسى الدكتور محمد الهادي الطرابلسى عن الشوقيات وتناولها بمنهج أسلوبي وبلاغى متكامل حفزتنى على أن أجرب نسقا آخر من الدراسات الأسلوبية النقدية يطمح إلى اقتناص الظواهر الكلية وبلورة الخواص المميزة للشاعر التى تجعل لقصائده مذاقا مختلفا عن غيره وتنحصر في الذاكرة باعتبارها طريقته المائزة التي تشكل ملامح بصماته التعبيرية.

وكنت أعرف شغف شوقى بالمتنبى منذ أن حكى عنه الأمير شكيب أرسلان من أنه لقيه في مرحلة الشباب في باريس فوجده يتأبط ديوان المتنبى، فأحببت أن أوازن بينه وبين شاعره المفضل في حديث كل منهما عن العيد. لكن معارضات شوقى البديعة التى نافس فيها أبا تمام والبحتري وابن زيدون والبوصيري ومعظم كبار شعراء العربية ما زالت في حاجة لمقاربة تعتمد على مفهوم التناص وتستثمر إمكاناته وتضيف إليها.

صلاح فضل

obeikandl.com

أحمد شوقي في صباه

obeikandl.com